٨٢

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية

مركز مدرك للتنمية والدراسات الإسلامية

مشروعية البكاء في كتب العامة

الشيخ علاء سعد

1432هـ - 2011م

مشروعية البكاء في كتب العامة

البكاء تعبير إنساني فطري يعكس المشاعر والعواطف، وقد تناولته النصوص الشرعية بعمق في مختلف المناسبات. في كتب عامة المسلمين، نُظر إلى البكاء باعتباره حالة طبيعية تعبّر عن الحزن أو الخشوع، وخاصة عند التفاعل مع المصائب أو الآيات القرآنية. يتناول هذا البحث مشروعية البكاء كما وردت في كتب العامة، مستعرضا الأدلة الشرعية التي تُبيح أو تُستحب البكاء.

مشروعية البكاء في كتب العامة

قال تعالى (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) الآية ٨٤ من سورة يوسف،

الآية الكريمة تبين حزن وبكاء النبي يعقوب عليه السلام بعد فقد ولديه، وفي تفاسير المخالفين توجد ملاحظات ستأتي الاشارة اليها، فالبكاء والحزن سنة قرآنية ولا مانع منها، وفي حياة الانبياء عليهم السلام شواهد لذلك ومن ضمن هؤلاء الانبياء النبي يعقوب كما اشارت الآية الكريمة، فانه قد بلغ به الحزن مبلغا حتى عمي من كثرة البكاء ومع هذا الحال فكان له من الاجر سبعين شهيدا وفي بعض الاخبار مائة شهيد كما ذكر ذلك الزمخشري والرازي والسيوطي وكثير من مفسري العامة وسيأتي ذكر الرواية،

شرح الآية:

قوله تعالى(وتولى عنهم) أي: أعرض عَنْهُمْ كراهة لما جاءوا به، أي ان النبي يعقوب لمّا جاءوا اولاده بخبر (بنيامين) وما جرى لهم في مصر، اعرض عنهم لانهم اخبروه بفقد الابن الاخر وبسبب هذا هاج حزنه واشتد بكاؤه وأعادوا له الذكريات وكيف اخبروه من قبل بفقد يوسف،

وقوله تعالى (وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)قال الواحدي: أي :يا طول حزني عليه، وقال سيد طنطاوي: من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من أحداث . يقال : أسف فلان على كذا يأسف أسفا ، إذا حزن حزناً شديداً .وقال الزمخشري: وأضاف الأسف وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه، فإن قلت : كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً؟ قلت : هو دليل على تمادي أسفه على يوسف ، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ، وأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طريا . ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به،

قوله تعالى (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) قال بن كثير في قصص الانبياء

وقوله: " وابيضت عيناه من الحزن " أي من كثرة البكاء.

قال الجزائري: فغلب بياضهما على سوادهما ومعنى هذا أنه فقد الإبصار بما أصاب عينيه من البياض . واختلفت اقوال المفسرين فمنهم من قال ذهب بصره ومنهم من قال ضعف بصره فكان يدرك ادراكا ضعيفا

قال الالوسي: أي بسببه وهو في الحقيقة سبب للبكاء والبكاء سبب لابيضاض عينه فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، والابيضاض قيل إنه كناية عن العمى فيكون قد ذهب بصره عليه السلام بالكلية واستظهره أبو حيان لقوله تعالى : { فارتد بصيراً } [يوسف : ٩٦] وهو يقابل بالأعمى ، فقد اخرج عبدالله بن أحمد في « زوائده » وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : كان منذ خرج يوسف من عند يعقوب عليهما السلام إلى يوم رجع ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه ولم يزل يبكي حتى ذهب بصره وما على الأرض يومئذ والله أكرم على الله تعالى منه ،)انتهى،

قوله تعالى (فهو كظيم) " أي مكظوم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف قاله بن كثير في قصص الانبياء وقال الثعالبي:: {فَهُوَ كَظِيمٌ} أي مكظوم مملوء من الحزن، ممسك عليه لا يبثّه، ومنه كظم الغيظ ، عطاء الخراساني : كظيم : حزين، مجاهد : مكبود، الضحّاك : كميد، قتادة : تردّد حزنه في جوفه، ولم يتكلّم بسوء، ولم يتكلّم إلاّ خيراً، ابن زيد : بلغ به الجزع حتى كان لا يكلّمهم، ابن عباس : مهموم، مقاتل : مكروب، وكلّها متقاربة. الكشف والبيان،، هذه بعض كلمات المفسرين في خصوص هذه الآية وظهر منها جواز البكاء بل ان الحزن اذا بلغ مبلغا يؤدي الى ابيضاض العين فلا باس به، بنص القران الكريم ، وخلال تفسير الآية ذكروا روايات واليك بعضها: الزمخشري: وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سأل جبريل عليه السلام : " ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟

قال : وجد سبعين ثكلى (وهي التي لها ولد واحد ثم يموت). قال : «فما كان له من الأجر»؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط "

قال العلامة المحمودي تعليقا على هذه الرواية:((ترتيب هذا الثواب العظيم على وجده دليل على انه كان مستحبا شرعا، ونقل النبي لهذه الحكاية عن يعقوب بلا تعليق شيء عليها منه صلى الله عليه وآله دليل على انه اقرها في شريعته المقدسة وإلا لأبان حكمها الشرعي الاسلامي)) عبرات المصطفين، مع ملاحظة ان النبي يعقوب عليه السلام يعلم ان ابنه لم يمت وبلغ به الحزن مبلغ سبعين ثكلى، واما من ناحية الاجر فكان له اجر مائة شهيد، وكذلك الحال في بكاء الشيعة على اهل البيت عموما وعلى الامام الحسين خصوصا فقد جاءت اخبار كثيرة عن اهل بيت العصمة فان الشيعة مأجورين بل انهم يواسون النبي واهل بيته ببكائهم على الامام الحسين صلوات الله عليه،

وقال الزمخشري ايضا: فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال : " القلب يجزع ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون "

قال الالوسي: ((واستدل بالآية على جواز التأسف والبكاء عند النوائب ، ولعل الكف عن أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ،وقد روى الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم وقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ».روح المعاني،))

وقال ابن عجيبة: ((وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع . ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف ، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد ، وقد بكى رسول الله صلى

الله عليه وسلم وقال : « القلْبُ يَحْزَنُ ، والعَيْنُ تَدمَعُ ، ولا نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا ، وإنَّا على فِراقِكَ يا إبراهِيمُ لَمَحْزُونون » .البحر المديد

ولكن الزمخشري الالوسي وابن عجيبة لم يذكروا نص الرواية ،وهذا نصها كما في صحيح البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضى الله عنه - قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ - وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - تَذْرِفَانِ . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - رضى الله عنه - وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ». ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ - صلى الله عليه وسلم - « إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » . هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ، قاله البغوي في شرح السنة، وكذا قال النووي في خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام

قال السيد شرف الدين تعليقا على هذه الرواية: (ولا يخفى ما في تسمتها رحمة من الدلالة على حسن البكاء، واراد بقوله: ان العين تدمع الى اخر الرواية، ان لا اثم بدمع العين وحزن القلب ،وانما الاثم بقول ما يسخط الرب كالاعتراض عليه عز وجل المجالس الفاخرة.

الى هنا ثبت ان البكاء لا إشكال فيه ضمن الحدود الشرعية من الكتاب الكريم والسنة النبوية وقد تقدمت كلمات المفسرين وما ذكروه من فعل النبي يعقوب ومن فعل نبينا محمد صلى الله عليه واله: واليك جملة اخرى من مرويات القوم في بكاء النبي وسوف اقتصر على الموارد التالين: (١) بكاء النبي على عمه حمزة :ذكر بن سعد المتوفى سنة(سنة ٢٣٠ هـ) في الطبقات الكبرى، في ترجمة حمزة: (وبكت الأنصار على قتلاهم فسمع ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: لكن حمزة لا بواكي له. فجاءت نساء الأنصار إلى باب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبكين على حمزة فدعا لهن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأمرهن بالانصراف؛ فهن إلى اليوم إذا مات الميت من الأنصار بدأ النساء فبكين على حمزة ثم بكين على ميتهن.) انتهى.

و ذكر ابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣ هـ) في الاستيعاب في ترجمة حمزة : (بإسناده عن أبي هريرة قال وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد قتل ومثل به فلم يرى منظراً كان أوجع لقلبه منه فقال: " رحمك الله أي عم فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم " . قال فما برح حتى نزلت: " وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين " . النحل: ١٢٦ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بل نصبر " وكفر عن يمينه. وذكر الواقدي قال لم تبك امرأة من الأنصار على ميت بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لكن حمزة لا بواكي له إلى اليوم " . إلا بدأت بالبكاء على حمزة ثم بكت ميتها.) انتهى.

من خلال هذين القولين ترى ان النبي صلى الله عليه واله ، تألم لما لم يسمع البكاء والندبة على عمه حمزة عليه الرحمة، ولما سمع رجال الانصار قول النبي امروا نسائهم بالبكاء على حمزة بل صارت سنة في نساء الانصار الى زمن ابن سعد والواقدي انهن لا يبكين على ميت لهن الا بدأن بحمزة.

(٢) بكاء النبي على ابنه الحسين: ذكر ابن عبد ربه الاندلسي المتوفى سنة (٣٢٨ هـ)في العقد الفريد في مقتل الحسين بن علي: ومن حديث أم سَلمة زوج صلى الله عليه وسلم، قالت: كان عندي النبيّ ومعي الحُسين فدنا من النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأخذتُه فبكى، فتركتُه فدنا منه، فأخذتُه فبكى، فتركتُه. فقال له جبريل: أتحبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: أمَا إن أمتك ستَقتله وإن شئت أريتُك من تُربة الأرض التي يُقتل بها. فبسط جناحَه، فأراه منها. فبكى النبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر الطبري في ذخائر العقبى عن ام سلمة: قالت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح رأس الحسين ويبكى فقلت ما بكاؤك؟ فقال إن جبريل أخبرني أن ابني هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء قالت ثم ناولني كفا من تراب أحمر وقال إن هذا من تربة الارض التي يقتل بها فمتى صار دما فاعلمي أنه قد قتل قالت أم سلمة فوضعت التراب في قارورة عندي

وكنت أقول إن يوما يتحول فيه دما ليوم عظيم. خرجه الملا في سيرته. انتهى الى غير ذلك من الاخبار التي رواها علماء العامة وهي صريحة بان النبي بكى على سبطه قبل مقتله بما يقارب اكثر من خمسين سنة، ولو كان صلى الله عليه واله حيا لكان هو المعزى ، بل ان المستفاد ان البكاء على السبط الشهيد بعد مقتله اشد واولى واحرى خصوصا بعد ما نقله علماء الفريقين من بكاء النبي واهل بيته واصحابه في اكثر من مجلس ،وقد جمع العلامة الاميني المجالس والمآتم التي اقامها رسول الله في حياته على سيد الشهداء في كتابه سيرتنا وسنتنا واحصى ما يقارب عشرين مجلسا من كتب العامة، واما ما رووا من قول عمر وابنه من ان الميت يعذب ببكاء اهله عليه ،فمردود من جهتين:

الاولى: ان ابن عباس وعائشة حكما بغير ذلك وقالا ان عمر وابنه متوهمان في هذا الحديث، الثانية ان المذكور في سيرة عمر يخالف هذا الحديث فقد ذكر بن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: في ترجمة خالد بن الوليد: قال الأعمش عن شقيق بن سلمة قال لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بني المغيرة في دار خالد يبكين عليه قال فقيل لعمر إنهن قد اجتمعن في دار خالد وهن خلقاء أن يسمعنك بعض ما تكره فأرسل إليهن فأتهاهن فقال عمر وما عليهن أن يرقن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقعا أو لقلقة، قال وكيع النقع الشق واللقلقة الصوت ،

عن عبد الله بن عكرمة قال عجبا لقول الناس إن عمر بن الخطاب نهى عن النوح لقد بكى على خالد بن الوليد بالمدينة ومعه نساء بني المغيرة سبعا يشققن الجيوب ويضربن الوجوه وأطعموا الطعام تلك الأيام حتى مضت ما ينهاهن عمر

قال سمعت يونس النحوي يسأل عنه غير مرة أن عمر بن الخطاب قال دع نساء بني المغيرة يبكين أبا سليمان ويرقن من دموعهن سجلا أو سجلين ما لم يكن نقع أو لقلقة، قال يونس النقع مد الصوت بالنحيب واللقلقة حركة اللسان نحو الولولة

قال دخل هشام بن البختري في ناس من بني مخزوم على عمر بن الخطاب فقال له يا هشام أنشدني شعرك في خالد بن الوليد فأنشده فقال قصرت في الثناء على أبي سليمان انتهى موضع الحاجة، والملاحظ من هذه الاخبار عدة امور: اولا:

الاجتماع للبكاء على الميت لا إشكال فيه: وذلك لانه لما اخبر عمر بان النسوة اجتمعن لم يفرقهن بل سكت واقرهن على البكاء، بخلاف اجتماع نساء بني تيم لما مات ابو بكر فقد نهاهن عمر عن البكاء ولما لم تستجب له النسوة امر من يدخل عليهن ويضربهن ولم تأذن لهم عائشة فقال قد اذنت لك،

ثانيا :جواز البكاء على الميت شق الجيوب وضرب الوجوه واطعام الطعام: ان عمر نفى الباس في بكاء نساء بني المغيرة على خالد، بل انه بكى عليه مع النسوة سبعة ايام، واما ما نسب الى عمر من انه ينهى عن البكاء فقد قال عبد الله بن عكرمة :عجبا لقول الناس إن عمر بن الخطاب نهى عن النوح لقد بكى على خالد بن الوليد بالمدينة ومعه نساء بني المغيرة، سبعا يشققن الجيوب ويضربن الوجوه وأطعموا الطعام تلك الأيام حتى مضت ما ينهاهن عمر

ثالثا: جواز انشاد الشعر ورثاء الميت وذلك ان عمر طلب من هشام بن البختري، وعاتبه على تقصيره في الثناء، بل نقل العلامة المحمودي عن البلاذري (ولما حج عمر سمع حاديا من اهل الشام يمدح خالد، قال: فبكى عمر حتى نشج، وقال لو كان حيا لرددته عليكم، ومنه يستفاد جواز البكاء عند تذكر الاموات،

وهذا من باب الالزام والا ان الشيعة اعزهم الله سبحانه في غنى عن ذلك لان عندهم من الاخبار عن الائمة الاطهار في فضل البكاء على السبط الشهيد بما فيه الكفاية بل صارت من عاداتهم المألوفة اقامة العزاء على سيد الشهداء صلوات الله عليهم.